الأديب العربي والاستعمار الجديد

بقلم محمد محمد علي

لقد تخلصنا من الاستعمار في ثوبه القديم وكان يقوم على الاباحة الفكرية واستغلال قوى الشعوب . ولكن شعوبنا المناضلة اتخذت من ثقافتها درعا واقيا وجيشا غازيا حتى غادرنا هذا الاستعمار القديم بعد ان غرس في ارضنا جذورا من ثقافته المخربة وأقام في أرضنا وكلاءه القائمين على حراسة هذه الثقافة ورعايتها لضمان مصالحه المادية .

هذا هو الاستعمار في صورته الجديدة وهو في هذه الصورة اخطر منه في شكله القديم اذ أن معالمه المادية التي كانت تثير الشعوب قد اختفت ولم يصبح عامة الناس يرون امامهم عدوا غازيا يصوبون الى صدره السهام مباشرة بل صاروا يرون بينهم هؤلاء الوكلاء الذين هم من ابناء جلدتهم ويختلف الناس فيهم اشد الاختلاف ، فمنهم من يرفعهم الى ذروة الوطنية الشامخة ومنهم من يصفهم باقبح صفات الخيانة . والاستعمار مع خفائه المادي عن العيان لا يزال يصل الى اهدافه القديمة والوعي في بعض هذه الشعوب الحديثة الاستقلال مخدر بثقافته التي خلفها وراءه وأتى رسبها في الاعماق أيام سلطانه المباشر والتي تعمل على نشرها مؤسسات مختلفة متعددة النشاط تعمل عمدا على تغريب الاديب لتبذر فيه تناقضا بين العالمية والمحلية وتفسده في الصالة الغربية حتى تروض أي حدة عميقة بليغة قد تنقله الى الشعب وتبصره بحقيقته وتشحن روحه بالكبرياء والمعرفة . أن اخوف ما تخافه تلك المؤسسات وهي تعرف مكامن الخطر هو الابداع الموهوب الاصيل وهي لن تحفل بلجاجة ممسوخة ركيكة تصدر عن كاتب عاطل وهي لن تعني نفسها بالتصدق عليه بموهبة لم تكن فيه .

هذه صورة مختصرة لما نسميه بالاستعمار الحديث ، فما هو موقف الاديب العربي من محاربة هذا اللون من الاستعمار ؟ لقد ابلى معظم ادبائنا بلاء حسنا في مكافحة الاستعمار في صورته القديمة وكانت لهم مواقف مشهودة بصروا فيها الشعب بماضيه وحاضره ، وغنوا لمواكب الحرية ونغموا الاناشيد التي غرست مبادىء العزة والثورة في الاجيال منذ نشأتها الاولى ، فأدوا الامانة ، ولكن كما رأينا فان الامر قد اختلف وأصبح الاستعمار يهيمن على كثير من الشعوب التي استقلت حديثا بصورة جديدة تدعو الى وعي جديد وتدعو الى اسلحة جديدة يخالفها هذا الوعي لتوائم الموقف الجديد . فقد رأينا ان الاستعمار يحوم حول استقلالنا ويتسلل الى معاقلنا طورا بالترغيب وطورا بالترهيب للقضاء على الاشتراكية العربية والقضاء على القومية العربية التي برهنت ظروف المحنة الاخيرة انها لم تكن شعارا مرفوعا ليس وراءه رصيد من الشعور ، ولم تكن هتافا عاليا يخرج من الحلوق ولا تتصل جذوره بالصدور ، انها قضية المصير للشعوب العربية التي أراد الاستعمار الجديد ان يقضي على حيويتها ويجليها عن اوطانها بسواعده التي تختبىء وراء اداته الشائهة اسرائيل .

هذه المحنة الاخيرة نبهت الشعوب العربية أعنف تنبيه وهزت الضمير العربي هزا قويا فكان مؤتمر الخرطوم مظهرا لهذا الوعي الجديد ومظهرا لارادة الشعوب العربية التي لن تخضع ولن تلين . فنحن قد هزمنا حقا في مظهرنا المادي ، ولكن جوهرنا لم يهزم ، وهو الرصيد الثمين الذي هو امضى من السلاح ومما يصنعه السلاح .

نريد ان نبدأ من جديد ، لان ظروف هذه النكسة أملت علينا ان نبدأ من جديد ، فأصبح على حكوماتنا ان تنظر في امرها واصبح على شعوبنا ان تنظر في امرها ايضا ، واثقل كاهل الاديب العربي بعبء جديد لا يستطيع ان يؤديه بالاسلوب الذي ادى به واجبه ازاء الاستعمار القديم . أصبح عليه ان يدرس وأصبح عليه ان يتعمق في هذا الدرس ليعرف معرفة اليقين موطن الغفلة الذي افضى بنا الى هذا الموقف الدقيق الحرج . عليه أن يغير نفسه ليدرك بعمق التغييرات التي حدثت في محيطنا العربي وما يتبع هذا من بناء جديد لكياننا الجديد الذي ينبغي لنا ان نواجه به غزو الاستعمار في ثوبه الجديد .

نسأل مرة اخرى ما هو دور الاديب في هذا المضمار ؟ من غير شك نحن لم نهزم لا لاننا اقل من العدو شجاعة وبأسا ، ولا لاننا اقل منه صلابة في الارادة ، ولا لاننا اقل منه تطلعا الى الحياة الحرة الكريمة ، بل نحن فوق كل هذا اصحاب الارض واصحاب الشأن في هذه الارض ، وهو لص لا يحمل وثيقة شرعية تتيح له زيارة ارضنا . نحن هزمنا لاننا لم نبصر بوضوح تام أحابيل هذا الاستعمار الجديد . او اذا اردنا الدقة ، فان الكثير من حكامنا لم يبصروا بوضوح أحابيل هذا الاستعمار الجديد ، وان اجزاء كبيرة من الشعب العربي في الوطن العربي الكبير تحتاج الى من يفتح عيونها ويضيء لها النوافذ لترى ان الاستعمار ليس هو حكاما اجانب ، واعلاما اجنبية ترفع على الدور الاجنبية ، وجيوشا تحمي هذه المظاهر التي غايتها استغلال الشعوب وامتصاص دمائها . فقد اختلفت الصورة كما اسلفنا ، فمهمة الاديب العربي أليوم أن يوقظ الشعوب العربية التي لم تستيقظ بعد ، وان يقارع الحكام الذين لم يدركوا تمام الادراك حقيقة الاستعمار في ثوبه الجديد ، ويقارع الذين ادركوها ولكنهم ساندوها عن عمد لان مصالحهم ترتبط بمصالحه ، وان يشير اليهم اشارة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، وان يعريهم في وضح النهار . ولا بد لهذا الاديب البصير ان يحرك الشعوب لا بالهتاف والخطب الرنانة والقصائد الطنانة التي تتغنى بالبطولة البأس والاقدام فقط ، بل لا بد له ان يوقظ الشعوب العربية لتدرك دعائم البناء التي تحميه أولا من الغزو الجديد وتدفعها ثانيا الى المساهمة الفعالة النشطة في اشاعة الخير وتدعيم السلام والرخاء والمحبة على الارض .

ويمكن على سبيل المثال ان نشير فنقول ان هدف الاستعمار قديمه وجديده هدف اقتصادي بحت يتوسل اليه بوسائل كثيرة قد اشرنا الى بعضها ، وأهمها طمس معالم الطريق بتزييف الثقافة وقتل الجذور الحية من الثقافة الوطنية ومحاربة الاشتراكية العربية التي هي السور الذي يقف امام زحفه الاقتصادي المتواصل . اذن فعلى الاديب العربي البصير ان يبصر الشعوب من غير ان يدعو دعوة سافرة ، تشبه في تجردها وسفورها أساليب الذين يشتغلون بالسياسة البحتة ، الى امور هي اساس البناء الصلد ، ويمكن ان نعد منها مساندة القوى التقدمية الثورية في كل ناحية من انحاء العالم ، لاننا في وسط هذا الخضم لا نستطيع أن نقف وحدنا ، فنحن نحتاج الى الخبرة والسلاح ، ونحتاج الى العون المعنوي ايضا والى التأييد ، ونحن في الميدان الاقتصادي ينبغي ان نطارد رأس المال الاجنبي مطاردة لا هوادة فيها ، لانه هو الثغرة التي يتسلل منها التضليل ويتسلل منها شراء الضمائر . وعلى الاديب العربي قبل كل هذا ان يحرز ثقة الشعب بفئاته المختلفة ، وعليه ان يبصر الناس بفنه الجذاب وعبقريته الخلاقة الى امور عطلها الاستعمار ليكون فارس الميدان فيها ، هي محو الامية محوا تاما في كل الوطن العربي ، والامية السياسية خاصة ، والرجوع البصير الى ثقافتنا العربية وثقافتنا التي اضيفت اليها في مواطننا المختلفة في وطننا

العربي الكبير لتلتقط الجذور الحية منهـا القابلة للنمو والازدهار ، والتي تفتح صدرها للثقافة العالمية النظيفة القابلة للتلقيح الحي الذي يعين على النمو والازدهار ، ومن غير ان ندخل في امور يحسن القـول فيها اخواننا الذين تخصصوا في فروع العلم المختلفة .

ندعو المثقف الوطني العربي في مختلف بقاعه ان يدعو الى هـذه الثقافة العملية النظيفة في أفق نظيف ، وكل القواعد العسكرية ينبغي الا يكون لها وجود في الوطن العربي .

نكرر مرة اخرى ان الاديب ينبغي ان يخاطب الشعوب التي هـي صاحبة الشأن في كل تغيير يحدث في المستقبل لا بلغـة السياسة المباشرة بل بلغة الادب النابض لانه صاحب موهبة تحـرك الاحاسيس الدقيقة في وجدانها العميق . نحن ابناء اللغة العربية والذين ينبغي ان يدركوا اسرار هذه اللغة التي شهد شاهد من غير اهلها انها وعـاء شفاف حضاري حوى ثقافة اليونان واحتفظ بها بعد ان قضى عليها ان تنام في مرقدها ، ولم يأب ما أضافه اليها الرومان ، واخـذ الاجزاء الحية من ثقافة الفرس ، ومزج هذا كله بملكته وعبقريته القوية فينسق انساني ليس فيه شيء من التنافر ، وبعث به اوروبا الحديثة .

نحن ابناء هذه اللغة ينبغي علينا ان نرجع اليهـا رجعة بصيرة مزودين بثقافة العصر لنستمد منها الثراء النافع الاصيل كمـا فعل اوائلنا ، والا نطرح شخصيتنا ونذوب فـي اطار مـن الصور الغريبة المستعارة .

نحب ان نقول اننا لا نرفض بل نرحب ترحيبا فيه بشاشة وحفاوة بكل جديد نافع يأتي الينا من كل حدب وصوب ، ولكن بشرط ان نصوغه وأن نوائم بينه وبين قديمنا مواءمة حميمة لا أن يصوغنـا هو صياغة تذهلنا عن أنفسنا . نعني بكل وضوح ان المبدع العربي من همه فيهذه الفترة الجديدة ، وبعد هذه الهزيمة التي أتـت نتيجة حتمية لاخطاء جسيمة ينبغي ان نعترف بها جميعا ، وان نحمل مسؤوليتها جميعا ، وان نعد العدة والعتاد لنتقي عارها وعواقبها الوخيمة ، ينبغي ان يكـون الاديب العربي الذي يحدو قومه الى قمة يجتمع فيها لا للتشاور والبحث وحده ، ولا لاعداد الوسائل وحدها بل لنشدو ونصيح صيحات الفـرح بالانتصار العظيم للقومية العربية وللاشتراكية العربية ، وليطهر الوطـن العربي من الصهيونية ومن الاستعمار الحديث الذي يحمل فـي يـده الصهيونية رمحا موجها الى صدر الوطن العربي . وبالاختصار ينبغـي ان يستفيد الاديب العربي البصير من هذه الهزيمة فائدة تبني كيانـه بناء جديدا لينادي الشعوب العربية نداء جديـدا ليس بالشعارات والهتافات وليس بالاسلوب القديم الذي حارب بـه الاستعمار القديم ولكن بأسلوب جديد يناسب الاوضاع الجديدة وينبغي أن يتطور في فنه كما تطور في وعيه فيصب مشاعره الخيرة في الاسلوب الذي تفهمـه الشعوب العربية فهما جيدا . لتعلم ان قضيتهـا لا تنفصل ولا تنفصم عن قضية الشعوب المناضلة في افريقيا وآسيا ولا تنفصم عـن قضيه فيتنام وعن قضية جنوب أفريقيا وعن قضية الزنوج في امريكا وعـن قضية أي شعب يريد ان يرفع رأسه عاليا ويعيش عيشة سعيدة ونحن جميعا في المصيبة اخوان .

واخيرا نود ان نقول ان ما يخصنا من هذا البحث الحيوي فـي هذه اللحظات الحيوية قد وصل الينا متأخرا جدا فلـم نجـد فرصة للتروي والامعان فكتبنا مرتجلين ولكننا مرتجلون بوجدان ملتهب يتجاوب تلهبه مع تلهب اللحظة الحاضرة ، فنرجو ان يقبل منا عذر الارتجال الذي يتجاوب مع ارتجال انهزامنا غير المتوقع ومع تبليغنا هذا الموضوع فـي فترة لم نتأهب فيها للقول وانما تأهبنا فيها للفعل فنحن جميعا ادبـاء وجنود وما شئت من فئات الشعب كلنا في الميدان .

ونحب ان نختم هذا الحديث بقول سيدنا عثمان : « انتم الى امير فعال أحوج منكم الى أمير قوال » .

محمد محمد علي
مندوب السودان

دار الآداب تقـدم

صدر حديثاً

الارهابيّون والفدائيّون

تاليف رولان غوشيه

ترجمة ريمون نشاطي

في شهر اذار (مارس) عام ١٨٨١ هاجم بعض الشبان الذين يحملون قنابل يدوية القيصر الكسندر الثاني ، فقتل القيصر ، ولكن الطغيان ظل حيا .

ومع ذلك ، فان الارهاب دخل حلبة التاريخ على اثر هذا الحادث . فما لبثت فئات كثيرة ان تبنت هذا الاسلوب : الاشتراكيون ـ الثوريون ، الفوضويون ، البولشفيك ، الجيش الجمهوري الايرلندي ، الارهابيون الالمان والحرس الحديدي ، عصابتا الارغون وشتيرن في فلسطين ، منظمة الجيش السري الفرنسي الخ... كما ان جبهة التحرير الجزائرية قامت باعمال فدائية باهرة ضد الجيش الفرنسي المحتل، وكان احد ابرز قادتها ياسف سعدي . ويقوم الآن الفدائيون العرب الابطال في فلسطين باروع المآثر .

ولا تزال اعمال الارهاب والفدائية منتشرة في كثير من اقطار العالم ، والواقع ان هذا الشكل من المقاومة يحل تدريجيا محل الحرب التي يصعب فيها تجنيد كتل بشرية كبيرة وتوشك ان تؤدي الى نزاع عالمي ذي نتائج خطيرة .

وهذا الكتاب الذي وضعه الكاتب الفرنسي رولان غوشيه يروي باسلوب جـذاب تاريخ الحركات الارهابية والفدائية في العالم منذ روسيا القيصرية حتى ايامنا . الثمن ٤٥٠ ق. ل.